البلاغة القرآنية ودورها في رد الشبهات وتطوير النظرية
الرجال قوامون على النساء- نموذجا

The Role of the Quranic Rhetoric in Responding to doubts and developing the theory "Men are responsible for women- a model

د/أحمد جمال ناجي محمد زقزوق
كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

ملخص البحث

يُعَدُّ البحث دراسة بلاغية تطبيقية على جزء من آية، ولكنها في الوقت نفسه تُعَدُّ ردًّا على شبهة سائرة بين المشككين في عظمة القرآن الكريم، وقدسيته وحكمته من دون نظر إلى عمق لفظه، وبديع وصفه، وحاجة من يتعامل معه إلى تهيئة خاصة في الكيف والنوع ...

وهذه الدراسة تقوم على ثلاثة محاور رئيسة:

أما المحور الأول فَيُعْنَى بدلالة الألفاظ – محل الإشكال- في المعجم العربيّ؛ حتى يكون الانطلاق معياريًا ومبنيًا على أصل متعارف إليه في البيئة العربيّة ...

وأما المحور الثاني فيدور حول الكناية ودلالتها وعلاقتها بين الحقيقة والمجاز ودعوة القرآن إلى سبر غور الكلمات والاجتهاد في فَهم العبارات؛ ذلك من أجل حُسن الفَهم، فضلًا عن بلاغتها وأنواعها وحاجتها إلى أنواع أُخَر تظهر بالتطبيق...

وأما المحور الثالث فيدور حول تحليل الشبهة، وهي قوله – سبحانه- :" الرجال قوامون على النساء"(النساء/ ٣٤) بوصفها وجهة كنائية من دون اللجوء إلى الوجهة التعليلية التي أعقبتها والتي ترتبط بتفضيل الله – من دون خوض في جهات التفضيل – والإنفاق الظاهريّ من دون الباطنيّ؛ إذ القوامة عزم وعلم وقدرة في زواج وغيره، فضلا عن خير وحق وجمال؛ فهو صاحب عقل وعدل وعفة وشجاعة؛ فضلا عن فضيلة وسطيته...

ولقد خَلص البحث إلى نتائج كثيرة، لَعَلَّ أهمها منطلق الشبهة وهي أن الرجل لايَعْنِي الذكر أو مَن يستطيع الزواج، بل مَنْ يحمل من الكاملات أعلاها ومن الأخلاق أعظمها؛ فهو ظهير مَنْ لا ظَهير له، وسند مَن لا سند له، وعضد مَن لا عضد له؛ إذ به تقوم وعليه تعتمد ومنه وفيه تشعر بجميل الأثر، ونستأنس في ذلك بقول أحمد شوقي:

وكن رجلا إن أتوا بعده يقولون مرَّ وهذا الأثر

ومن ثم فالشبهة صادرة عن ضعف أداة وسوء فهم وقلة تدبر ...

الكلمات المفتاحية

البلاغة القرآنية– الشبهة – الرجل– القوامة – الولد– المرأة – النساء – الكناية

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيّ بعده، محمد –صلى الله عليه وعلى آله وصحبته أجمعين، وبعد فإن البلاغة العربية عامة لاتزال بكرًا على الرغم من كثرة مصطلحاتها وسعة موضوعاتها وشواهدها، والبلاغة القرآنية خاصة لم تنقطع عبر الزمان والمكان؛ منتجة كل جديد– تصديقًا لقول النبيّ محمد " لا يخلق عن كثرة رد"– في طور ازدهارها ولاسيما في الأيام الحديثة، فضلا عن أن البلاغة التحليلية تعطي الكثير للعلم والإنسانية.

وقيمة البلاغة القرآنية تنبع من ارتباطها بكتاب العربية الأكبر– القرآن الكريم–، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ فهو كتاب حَمَّالُ أوجه، والتفسيرات المختلفة، والتأويلات المتباينة ماهي إلا محاولات بشرية بأدوات متفوتة سواء أفكرية أم علمية أم ثقافية أم عقلية أم نفسية؛ من أجل فَهم هذا الكلام على الوجه الأكمل، بصورة لاتتعارض مع قدسيته وعظمته وجلال منزلته.

والبلاغة القرآنية بلاغةٌ تحليلية في المقام الأول، لا تتعلق بالخلق أو الإنشاء أو الإبداع بقدر تعلقها بمحاولة الفَهْم عن طريق الاستنباط والاستقراء والاستنتاج والقياس والبحث والتأويل والتفسير والاجتهاد والتفكر والتدبر... وذلك بما تحويه هذه المصطلحات من تفريعات علمية وأصول معرفية...

والبلاغة القرآنية حينما تقوم فيها بالتحليل فإنك لاتقوم بالتحليل المجرد، بل تقوم أيضًا بمحاولة رد المتشابه إلى المحكم، والظنيّ إلى القطعيّ، والفرعيّ إلى الأصليّ؛ فهي تقوم –في الوقت نفسه– برد المطاعن والشبهات في محاوله حجاجية إبداعية تمزج بين حدة العقل وقوة النقل، ولعل هذا هو منطلقنا حول هذا البحث الذي يُعْنَى بدور البلاغة القرآنية في رد الشبهات.

أما المنهج المتبع فهو المنهج الوصفيّ؛ إذ إنه أقرب المناهج لهذا البحث وطبيعته، وفي الوقت نفسه يضم في طياته المنهج التحليليّ؛ إذ لا وصف من دون محاولة للتحليل والتعليل والتفسير والتقييم والتقويم.

أسباب الاختيار:

وأما أسباب اختيار الموضوع فكثيرة متنوعة، منها ما يرجع إلى القرآن وقدسيته، ومنها مايرجع إلى البلاغة ومحاولة مراجعة النظر، ومنها ما يرجع إلى روح العصر وطبيعته الزمانية والمكانية. وإجمال هذه الأسباب فيما يأتي:

أولًا– القرآن الكريم كتاب مقدس لايخلق عن كثرة رد، وهذه محاولة لفهم بعض آياته ونصوصه وجمله.

ثانيًا– البلاغة دومًا في تطور، وهذا التطور يكون أكثر معيارية، إذا تعلق التطور بأصول تطبيقية، لا فَرَضيات عقلية.

ثالثًا– هذه الدراسة تُعَدُّ محاولة لخدمة القرآن الكريم، في ظل عصر كَثُرَ فيه مَنْ يحاولون الطعن فيه، سواء أكان هذا الطعن متعمدًا؛ بناءً على كِبر وعلو وجحود أم كان مبنيًا على محاولة فهم من دون امتلاك أدوات وتهيئة مناسبة لهذا الفهم.

رابعًا– هذه الدراسة محاولة لإثراء المكتبة العربية عامة، والمكتبة القرآنية خاصة بدراسة لعلها تحمل قيمة أو فائدة أو تَقْدِمه لأهل العربية عامة وأهل القرآن خاصة.

خامسًا– ضبط الشبهة وحسن توجيها يساعد على خدمة القرآن عالميًا؛ إذ الشبهة تنتقل بالترجمة بوعي ومن دون وعي.

والبحث سيقوم على ثلاثة محاور، أما المحور الأول فَيُعْنَى بدلالة الألفاظ – محل الإشكال– في المعجم العربيّ؛ حتى يكون الانطلاق معياريًا ومبنيًا على أصل متعارف إليه في البيئة العربيّة ...

وأما المحور الثاني فيدور حول الكناية ودلالتها وعلاقتها بين الحقيقة والمجاز ودعوة القرآن إلى سبر غور الكلمات والاجتهاد في فَهم العبارات؛ ذلك من أجل حُسن الفَهم، فضلًا عن بلاغتها وأنواعها وحاجتها إلى أنواع أُخَر تظهر بالتطبيق...

وأما المحور الثالث فيدور حول تحليل الشبهة، ومحاولة التوصل إلى حسن الفهم مع رد الشبهة ودفع المطعن المتعلق بتلك الآية.

المبحث الأول

ماهية ألفاظ الشبهة ودلالاتها

إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وتلك القاعدة تُعَدُّ أصلًا في المنازعات وسبيلًا في إدراك الموجودات وتطوير النظريات وقبول المستحدثات، وذلك وفق كلام العلامة زروق؛ إذ يقول" الكلام في الشيء فرع تصور ماهيته وفائدته ومادته بشعور ذهنيّ مكتسب أو بديهيّ؛ ليُرجع إليه في أفراد ما وقع عليه ردًّا وقبولا، وتأصيلا وتفصيلا فلزم تقديم ذلك قبل الخوض فيه؛ إعلاما به وتحضيضا عليه وإيماءً لمادته[١] " والشبهة التي تُذْكَر، تتعلق بآية قرآنية ، بل جزء من آية وهي :﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ...﴾ [النساء: ٣٤]

١ قواعد التصوف، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى زرُّوق الفاسيّ البُرنُسيّ، تقديم وتحقيق عبد المجيد خياليّ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٦/٢٠٠٥هـ، ص٢١.

ولذلك فإننا في حاجة إلى إدراك ماهية تلك الألفاظ ولا سيما كلمة الرجال، وكلمة النساء وكلمة القوامة وكلمة فضل الله وكلمة الإنفاق، فضلا عن ألفاظ أخرى متعلقة كالولد، والذكر، والذكران، والأنثى، والرجل، والمرأة؛ من أجل ضبط المنطلق؛ فالتعريف بالشيء يسبق موقفنا تجاهه ذلك الشيء.

أولًا– البلاغة القرآنية

هي البلاغة المتعلقة بكتاب العربية الأكبر – القرآن الكريم– وهي تختلف عن بلاغة النظم مثل: (الشعر والموشح والدوبيت والكان وكان والقوما والمواليا والزجل)، كما تختلف عن بلاغة النثر، من مثل: (الحكمة والوصية والمثل والمقالة والمقامة...).

والبلاغة القرآنية قد تكون موضعية، وقد تكون موضوعية، وقد تكون توجيهية[١]؛ فالموضعية تُحَلِّل آية ما تحليلًا بلاغيًا ملتمسة المعاني العميقة، كما ينبغي لها أن تكون على أحسن تفسير، والموضوعية قد تتعلق بسياق كامل، سواء أكان مرتبطًا بسورة أم كان بموضوع ما، كقصة موسى، وقد تتعلق بموضوع بلاغيّ كالالتفات في القرآن الكريم، وبلاغة الحجاج في القرآن الكريم، وقد تكون توجيهية ترتبط بالشبهات والافتراءات وكيفية الرد، وتكون برد الظنيّ إلى القطعيّ، والمتشابه إلى المحكم؛ فهي تأويلات وَفق العنايات، وصنوف الإمدادات[٢]، وفيها موضوعنا...

لولا العنايةُ كان الأمرُ فيه على *** حَدِّ السواءِ، فذو نُطقٍ، كذِي بَكَمِ

ثانيًا–الشبهة

هي كل مايمكن أن يظهر فيه التباس بوجه ما، مثل شبهة البعث بعد الموت كما في قوله – تعالى– ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ٨٠ أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ٨٣﴾ [يس: ٧٨-٨٣]

وهي تختلف عن الافتراء الذي يعني تعمد إلصاق التهم المفتعلة من دون دليل، ومن دون أن يكون فيها وجه للاشتباه أو اللبس مثل: زعم اليهود بأن الله فقير ومن ذلك قوله –سبحانه–

:﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ١٨١﴾ [آل عمران: ١٨١]، **وكذلك زعمهم بأن الملائكة بنات الله، ومن ذلك قوله–سبحانه–:**﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا٤٠﴾ [الإسراء: ٤٠]، **وكذلك مثل زعمهم بأن رسول الله شاعر ومجنون، وقوله– سبحانه–**﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ٥﴾

---

١ ذلك التقسيم من عمل الباحث وفق مطالعته واستقرائه، والشائع المشهور أنها موضعية في لفظة أو تركيب أو ترتيب وموضوعية في سورة أو قضية، كتفسير القرآن الكريم.

٢ ينظر: رد المتشابهات إلى المحكمات في جانب خاتم النبوات، محمد إبراهيم عبد الباعث الحسينيّ الكتانيّ، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م، ص٧

[الأنبياء: ٥]، وقوله–سبحانه–:﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ١٤﴾ [الدخان: ١٤]، وقوله–سبحانه–:﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ٦﴾ [الحجر: ٦]، وقوله– سبحانه–:﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ٣٦﴾ [الصافات: ٣٦][1]

والشبهة تنقسم إلى خمسة أنواع[2] :

أولًا– شبهات نحوية، مصدرها توهم وجود أخطاء إعرابية.

ثانيًا– شبهات صرفية، تدور حول استعمال جموع القلة في موضع جمع الكثرة والعكس.

ثالثًا– شبهات دلالية، وتُعْنَى بوجود ألفاظ مستعملة في غير معناها.

رابعًا– شبهات بلاغية، تدور حول الحشو والتكرار والتناقض.

خامسًا– شبهات عامة حول الإملاء والإعجاز والتشريعات.

وما نتحدث عنها تدور حول الوجهة الدلالية والبلاغية والعامة فالبحث يُعد دراسةً بينية المنشأ والمنطلق، تبعا لطبيعة الشعب اللغوية، والعلائق النفسية...

ثالثا– الرجل

إن كلمة الرجل من الكلمات التي تحتاج إلى وقفة حقيقية؛ فقد نجد خطابا واردا في السنة النبوية، ولا نجد ما يؤكد تلك الدلالة في القرآن الكريم، وذلك من حيث التعبير والأسلوب والاختيار، ولاسيما حين يتعلق الأمر بمسألة الذكر والأنثى والرجل والمرأة؛ فقد رُوي عن أم سلمة قالت: يا رسول الله! إني أسمع الله تعالى يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء؛ فنزلت﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٥]؛ فلم يستعمل القرآن في سياق الرد لفظتي الرجل والمرأة كما ذكرت أم سلمة بل استعمل لفظتي الذكر والأنثى، وتلك لطيفة.[3] ، وفي لسان العرب إشارة إلى أنها صفة تشير إلى الكمالات،فقد قال: "وقد يكون الرجل صفة يعني بذلك الشدة والكمال؛ قال: وعلى ذلك أجاز سيبويه الجر في قولهم مررتُ برجلٍ رَجُلٍ أبوه، والأكثر الرفع، وقال في موضع آخر: إذا قلت هذا الرجل فقد يجوز أن تعني كماله، وأن تريد كلّ رجل تكلم ومشى على رجلين...وهذا رجل أي فوق الغلام"[4] ومما سبق يظهر لنا أن لفظة الرجل تتعلق بثلاثة معانٍ وهي السير على الأرجل وما فوق الغلام– وهو الشائع المشهور، والكمال وهو اختيارنا؛ ومن ثمّ فالرجولة تتعلق بالكمال وهي للذكر والأنثى وفي الحديث كانت عائشة –رضي الله عنها– رَجُلة

---

(١) يُنْظَر: منهج القرآن في الرد العلميّ على الشبهات والافتراءات، محمد محمد داود، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م، ص٢٩–٣٠.

(٢) يُنْظَر: كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم، د.محمد محمد داود، دار المنار، الطبعة الثانية ٢٠٠٧/،ص٣٥–٣٧.

٣ يُنظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، الطبعة السابعة، ٢٠٠٢م، ج١، ص٦٠٣.

٤ يُنظر: لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث القاهرة، ج٤، ص ص٨٣– ٨٤، مادة رجل.

الرأي، وإن كانت المعاني الثلاثة في تكامل ، ففي الأولى قوة البدن، وفي الثانية قوة العقل وفي الثالثة مجموع القوتين، ولعل تلك الخطاطة التمهيدية[1] توضح المنطلق.

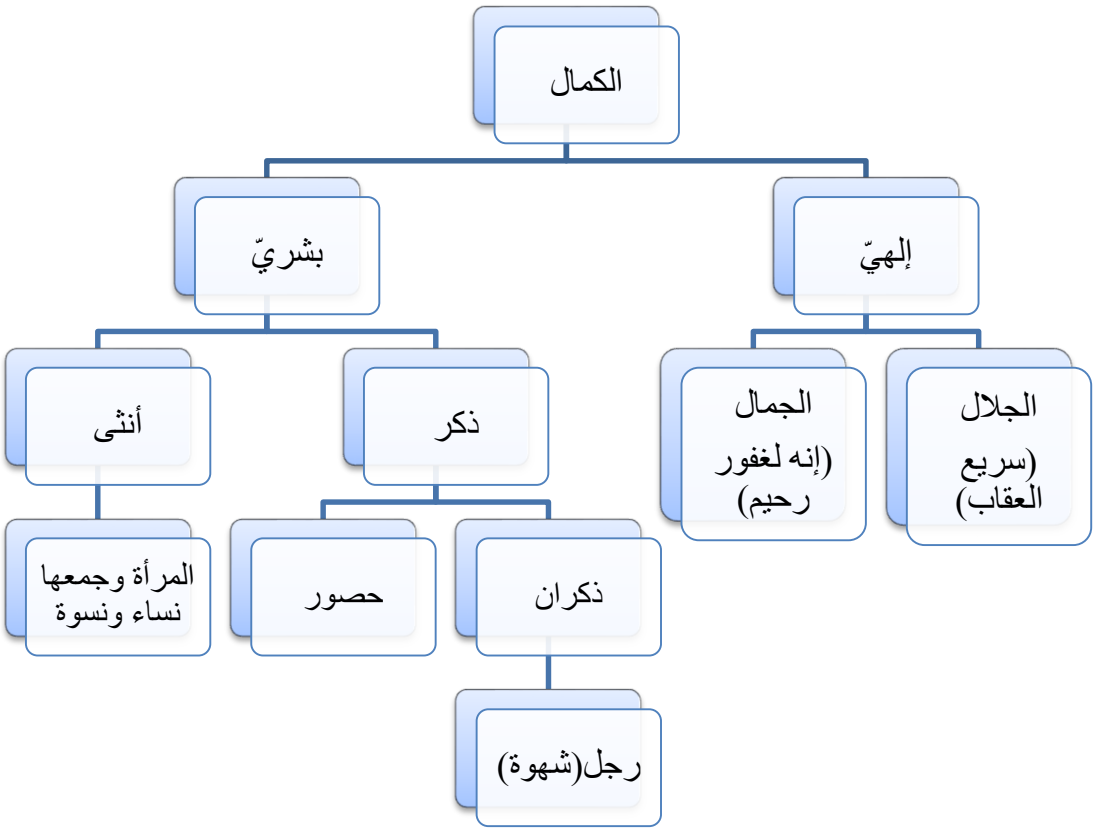

رابعا– القوامة

هي توزيع للعمل، تحدد الخبرة والكفاءة ميادنية، وليست قهرًا ولا قسرًا ولا تماسكًا ولا عبودية بحال من الأحوال[2]، وقد يُظَنُّ أن القوامة تعني المساواة بالاستناد إلى قوله سبحانه﴿... **وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ٢٢٨﴾ [البقرة: ٢٢٨]** ، والمساواة بين الرجل والمرأة في جميع الكفايات والأعمال أمر لم يقم عليه دليل من تكوين الفطرة ولا من تجارب الأمم، ولا من حكم البداهة والمشاهدة، بل قام الدليل على نقيضه في جميع هذه الاعتبارات.

ولم تتجاهل الأمم فوارق الجنسين إلا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التي تضطر مَنْ يتجاهلها إلى الاعتراف بها بعد حين، ولو من قبيل الاعتراف بتقسيم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثًا بعد أن غبرت عليها ألوف السنين، وأخرى أن يكون طول الزمن مع تطور الأحوال الاجتماعية سببًا لاختصاص كل منهما

١ هذه الخطاطة من عمل الباحث، بناء على المعاني والدلالات اللغوية والسياقات القرآنية من دون ذكر الرجل الكامل.

(٢) يُنظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ص٦١١

بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر، ولا سيما في الخصائص التي تفترق فيها كفاية الحياة البيئية، وكفاية الحياة الخارجية؛ فإن طول الزمن لا يلغي الفوارق بل يزيدها، ويجعل لكل منها موضعًا لا يشابه سواه ...[١]

خامسا– الولد

لفظ يُطلق على كل مولود، أذكرا كان أم أنثى، وفي القرآن الكريم، ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ٣﴾ [البلد: ٣]، ومن ثم فالأمر العرفيّ المتعلق بجعل الولد ذكرا ليس بصحيح...

سادسا– المرأة

هي كل أنثى، ذات منصب وجمال، وفي الحديث " ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال"، وفي القرآن نجد امراة نوح وامرأة لوط، وامرأة عمران، وامرأة فرعون، وامرأة العزيز، وامرأة أبي لهب...وجمعها نساء(اسم جمع ليس له مفرد من جنسه).

سابعا– الأنثى

نقيض الذكر أو خلافه من كل شيء، وإن ارتبطت أكثر بالوجهة الفسيولوجية العضوية الوظيفية.[٢]

ثامنا– الكناية

لفظ أطلق وأريد به لازم معناه أو هو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، وهي تنقسم إلى الكناية عن صفة وموصوف ونسبة.[٣]

المبحث الثاني

الكناية بين الحقيقة والمجاز ودعوة القرآن إلى سبر غور الكلمات

الكناية هي منطلق رد الشبهة، وهي من الوجهة البلاغية موضوع مهم من موضوعات البلاغة العربية، تُعَرَّف بأنها لفظ أُرِيدَ به لازم معناه أو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم أو استعمال اللفظ في غير ما وُضِعَ له مع عدم وجود قرينه مانعة من إدارة المعنى الأصليّ.

وقال الطيبيّ: ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم، فينتقل منه إلى الملزوم، وأنكر وقوعها في القرآن مَنْ أنكر المجاز فيه بناءً على أنها مجاز، وأقول، لعل انطلاق رفض المجاز والكناية من ابن تيميه بوصفها تبعًا

(١) يُنظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه،عباس محمود العقاد، دار الشروق، ص١٢٩

٢ يُنظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الخامسة، مكتبة الشروق الدولية، ص٢٩، مادة أنث.

٣ يُنظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازيّ، تحقيق سعد سليمان حمودة، دار المعرفة الجامعية، ص ص ١٤٠– ١٤٣.

لها؛ إذ إنها مجاز حين التطبيق إدراكًا باطنيًا وحقيقة في الظاهر أو وسط بين الحقيقة والمجاز بناءً على قول الرازيّ[١]...

فلقد قال ابن تيميه في لاميته:

وأقول في القرآن ما جاءت به * آياته فهو الكريم المُنَزل

وأقول قال الله جَلَّ جلاله * والمصطفى الهادي ولا أتأوَّل

وجميع آيات الصفات أُمِرُّها * حقًا كما نطق الرعيل الأول

فلقد صَرَّح بأن التأويل مرفوض عنده، وفرق كبير بين المقبول والمردود في وجهة أحد أهل العلم وبين ما تقبله اللغة أو ترفضه؛ وذلك بناءً على مايلي:

أولًا- وردت ألفاظ في القرآن الكريم تؤكد وجهة المجاز بطريقة ترادفية، ومنها مايلي: (التأويل والاستنباط والتدبر والفهم والاحتهاد والبحث والمدارسة واللدنية والحكمة والنظر والبصر...)، وتفصيلها في القرآن كالآتي:

التأويل:

وقد ورد على مستويات كثيرة متباينة؛ ففي فَهْم القرآن وسياقاته﴿... ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ٧﴾ [آل عمران: ٧]، وفي مستويات اللغة نجد قوله- تعالى-: ﴿...وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ٢١﴾ [يوسف: ٢١]، كما نجد تأويل الفعل بين الظاهر والباطن كما في قصة الخَضِر ونبيّ الله موسى – عليه السلام-: ﴿... وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا٨٢﴾ [الكهف: ٨٢]، ونجد التأويل أيضا في سياق الرؤيا الصريحة والمؤولة كقوله:﴿...نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ٣٦﴾ [يوسف: ٣٦] .[٢]

الاستنباط:

وهو إدراك الأحكام واستخراجها بطريقة تحتاج إلى عمق نظر، واجتهاد، ويقال استنبط الجواب أي تلمسه من أثناء السؤال،[٣] وفي القرآن نجد قوله- سبحانه-: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي

١ يُنظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازيّ، تحقيق سعد سليمان حمودة، دار المعرفة الجامعية، ص ص ١٤٠- ١٤٣.

٢ يُنظر: مجمع البيان الحديث، سميح عاطف الرين، دار الكتاب اللبنانيّ، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص ص ٩٧-٩٩.

٣ ينظر: المعجم الوجيز، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ٢٠٠٢، ص ٦٠٠، مادة نبط.

ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

التدبر:

وهو النظر في الشيء والتفكر وهو من دُبُر المعاني أو معنى المعنى أو ما وراء الوراء[1] وَفق تسمية الدكتور محمد زكي العشماويّ بقوله: "وأطلق جناحك..شُقَّ الفضاء!! وسافر إلى ما وراءَ الوراءَ..لتقرأ ما سطرته السماء!! وتعرف أين وكيف تكون؟!! وتدركُ سر البقاء وسرَّ الفناء.."، وقد جاء التدبر في قوله –سبحانه- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله-سبحانه-﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

الفهم:

وهو حُسْن الإدراك والوعي بعد الحفظ، ولا يُتَاحُ لأي أحد على الرغم من امتلاك بعض النصوص استظهارًا، وفي القرآن الكريم نجد قوله- سبحانه-:﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ...٧٩﴾ [الأنبياء: ٧٩].

الاجتهاد:

وهو بذل الجهد واستفراغ الوسع في الوصل إلى شيء ما، ومنها الأمور العلمية المعرفية، وفي ذلك نجد قوله-سبحانه-: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والمجتهد كذلك مَنْ يَعْرِف الاستنباط من الأصول عن طريق القياس، وشروطه في الدين كالآتي:

- التمكين من اللغة العربية إلى حد إدراك أسرار البيان القرآنيّ.
- الفَهمْ والتدبر لآيات الأحكام التي تبلغ خمسمائة آية.
- رسوخ القدم في السنه وعلومها، رواية ودراية، سندًا ومتنًا...
- المعرفة المحيطة بالناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والعام والخاص ...، وذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية.
- المعرفة بأصول الفقه واجتهادات العلماء فيه، ومسائل الإجماع والقياس.
- الحذق لروح التشريع الإسلاميّ ومقاصد الشريعة الإسلامية؛ حتى تتحصل للمجتهد ملكة الجمع والمقارنة بين النصوص المتعددة[2]، وفي الحديث: " آفة الدين ثلاثة: فقيه فاجر، وإمام جائر، ومجتهد جاهل"[3]

---

١ ينظر: أغنية في غابة مشتعلة، محمد زكي العشماويّ، الطبعة الأولى، أغسطس ٢٠٠٠م، ص ١٩٢، المعجم الوجيز، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ٢٠٠٢، ص٢٢٠، مادة دبر.

(٢) إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات، الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص ص ٤٦-٤٧.

(٣) ابن عباس في مسند الفردوس للديلميّ، "موضوع" السلسلة الضعيفة للألبانيّ،تحت رقم ٨١٩

البحث:

وهو إظهار الخفيّ حتي يكون جليًّا للناس، ومن ذلك قوله –سبحانه–:﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ٣١﴾ [المائدة: ٣١]

المدارسة:

وهي تكون بطلب ما كان غامضًا أو بَعرْض الفهوم المختلفة، ومن ذلك قوله –سبحانه–: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩]

اللَّدُنية:

وهي ترتبط بالتحصيل والوعي والإدراك المعرفيّ؛ فقد يكون بديهيًا، وقد يكون كسبيًا، وقد يكون كشفيًا إلهاميًا لدنيًّا، لا يُتَاح للناس كافة، بل يتعلق بخواص الخواص، ومن ذلك قوله –سبحانه–: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا٦٥﴾ [الكهف: ٦٥]

الحكمة:

وهي تتعلق بالعلة الخفية الغامضة غير الظاهرة الواضحة المُعْلَنة، ومن ذلك قوله –سبحانه–: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ٢٦٩﴾ [البقرة: ٢٦٩]

نزيد على ذلك أن القرآن أعلى من شأن العقل فذكر مادته في غير موضع فضلًا عن مترادفاته في سياقات كثيرة متباينة، ومن ذلك كلمات، من مثل: (يعقلون – يتفكرون – النهي – الألباب – الأبصار)، ودلالاتها كالآتي:

النظر:

ونعني به بعد نظر الحس نظر العقل، ذلك النظر الذي يتطلع إلى عِلِّية الأشياء، وكيفية وجودها، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ٢٠﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]

البَصَر:

الذي يشبه النظر في حسيته وعقليته، ومن ذلك قوله –سبحانه–: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ٤٣ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ٤٤﴾ [النور: ٤٣-٤٤]

وإجمالًا فإننا نجد أن كل هذه الشواهد القرآنية وغيرها من والاستدلالات تؤكد دعوة القرآن إلى النظر والبحث فيما وراء الأشياء، لا النظرة القاصرة الظاهرة المجردة عن العلم والعقل والروحانية والتماس الحق، مع كونها مقبولة في المحكمات لا المتشابهات.

ثانيًا– إن السنة النبوية لم ترفض التأويل؛ ومن ثم لم ترفض المجاز أو الكناية، ولكنها ترفض التأويل الصادر عن غير ذي صفة، أي التأويل الصادر عن الغافل أواللاهي أو الجاهل، أو الصادر عن ضعيف العقل ومريض النفس وفارغ الرُّوح ومتبع الهوى، ومن ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم: "يحمل هذا العلم من كُلِّ خَلَفٍ عدولُهُ، ينفون عنه تحريف الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتأويل الضالين"

ثالثًا– عدم وجود لفظة المجاز في عهدة النبوة أو صدر الإسلام لا يعني عدم وجود المعنى والدلالة، فكم من ألفاظ تطورت ألفاظها، وبقيت معانيها والقاعدة الأصولية التي تقول: "العبرة في العقود للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني"
ومما يؤكد ذلك أشارة النبيّ محمد –صلى الله عليه وسلم– إلى مثل هذا حينما قال: " يسمونها بغير اسمها"...؛ ومن ثم فلا حرج من ذكر المجاز أو الكناية أو الاستعارة أو التورية أو اللمح أو الإشارة أو التلويح أو التعريض...

رابعًا– المجاز ليس بكذب؛ إذ إنه يختلف عن الكذب بالتأويل والقرينة؛ ومن ثم فلا مُسَوِّغ لمن انطلق من وجهه أخلاقية؛ لينفي المجاز...

خامسًا– إن شروط المجاز عند ابن تيمية أربعة[١]

- أنه قد اسْتُعْمِل من قبلُ في لغة العرب.
- وجود قرينه صارفة (لفظية أو عقلية أو حالية...)
- أن تسَلْمَ القرينة أو الدليل عن معارض وتلك مسألة نسبية
- ضرورة توضيح ما انصرف عن ظاهر اللفظ إلى باطنه.

وذلك ما يُفْقِدُ اللغة رونقها وجمالها...وهنا نقول: ماذا يقول في حديث النبيّ محمد: "فإنما أنا قاسم والله يُعْطي..." وقوله: "فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع"، وقوله ودعاؤه لابن عباس يؤكد الأمر أكثر؛ إذ قال له: " اللهم فَقِّه في الدين وعلمه تأويل"، وما فعل نبيّ الله يوسف عليه السلام حين تعلم التأويل ببعيد، وهل كان الأمر واضحا متعارفا إليه عند الملأ، وهل وضَّحت الرؤيا نفسها بذاتها من دون معونة ومؤونة.
ولقد لخص السيوطيّ المذاهب المختلفة في الكناية وحصرها في أربعة مذاهب، وهي:
الأول– أنها حقيقة، قاله العز بن عبد السلام.
الثاني– أنها مجاز.
الثالث– أنها لا حقيقة ولا مجاز، وهو لصاحب التلخيص.
الرابع– أنها حقيقة أو مجاز وَفق الاعتبار، وهو مذهب تقى الدين السبكيّ[١]

(١) يُنظر: الرسالة المدنية، ابن تيمية، ص ص ٣٣–٣٧

أسباب الكناية

وللكناية أسباب كثيرة ومنطلقات متباينة نذكر منها ما يلي:

أولًا– التنبيه على عظم القدرة، نحو: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ١٨٩﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ثانيًا– ترك اللفظ إلى ما هو أجمل، نحو: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ٢٣﴾ [ص: ٢٣].

ثالثًا– أن يكون الصريح مما يستقبح ذكره، نحو قوله– سبحانه–: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ١٨٩﴾ [الأعراف: ١٨٩]. كناية عن الجماع والعلاقة الجنسية.

رابعًا– قصد المبالغة، نحو: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ٦٤﴾ [المائدة: ٦٤] كناية عن سعة جوده وكرمه

خامسًا– قصد الاختصار، كالكناية عن ألفاظ متعددة وأفعال متباينة بلفظ (فعل)، نحو:﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ٧٩﴾ [المائدة: ٧٩]

سادسًا– التنيه على مصيره، نحو:﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ١﴾ [المسد: ١] أي جهنمي مصيره إلى اللهب.

سابعا– استنبط الزمخشريّ نوعًا غريبا من الكناية، وهو أن تعمد إلى جمله معناها على خلاف الظاهر؛ فتأخذ الخلاصة من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة والمجاز فتعبر عن المقصود، كما تقول في نحو:﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ٥﴾ [طه: ٥] كناية عن الملك؛ فإن الاستواء لا يكون إلا عن مُلْك...

وأوجز بدر الدين مالك في المصباح الأسباب بقوله:

"إنما يعدل عن التصريح إلى كناية لنكته، كالإيضاح، أو بيان حال الموصوف، أو مقدار حاله، أو المقصدإلى المدح والذم، أو الاختصار، أو الستر أو الصيانه أو التعمية أو الألغاز أو التعبير عن الصعب بالسهل أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن"[٢]

ونخلص من ذلك إلى أن الإيجاز أو الاختصار يعد سببا ومسوغا في صناعة الكناية وإن كان في الأقسام غير واضح وهذا ما يتعلق بمنطلقنا في التوجيه، وهو الكناية عن الصفات بالصفة.

الكناية عن الصفات بصفة

(١) يُنظر: الإتقان، جلال الدين السيوطيّ، دار الحديث، ج٢، ص٤١

(٢) يُنظر: البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران للإمام السيوطيّ، ص ص٧٠–٧٣

قلنا: إن الكناية ترك التصريح بالشيء إلى ما يساويه في اللزوم؛ لينتقل منه إلى الملزوم، وقيل لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرداته معه. والكناية قد تكون رمزًا أو تلويحًا أو إيماءً أو تعريضًا...

فالرمز ما يشار به إلى المطلوب من قرب مع الخفاء، وتلويح ما يشار به إلى المطلوب من بعد مع الخفاء، والإيماء هو الكلام المشار به إلى المطلوب من قرب لامع الخفاء، والتعريض هو الكلام المشار به إلى جانب، وإيهام أن الغرض جانب آخر[١]

وبطريقة أخري: فالكناية إن كثرت فيها الوسائط نسميها " تلويحًا" نحو "هو كثير الرماد" أي كريم فإن كثرة الرماد تستلزم كثرة الإحراق، وكثرة الإحراق تستلزم كثرة الطبخ والخبز وكثرتهما تستلزم كثرة الآكلين وهي تستلزم كثرة الضيفان وكثرة الضيفان تستلزم الكرم، وإن قلَّت الوسائط وخفيت نسميها "رمزًا" نحو: هو سمين رخو أي غبيّ بليد، وإن قلت الوسائط أو لم تكن وَوَضَحَتْ نسميها " إيماء وإشارة" نحو:

أَوَمَا رأيت المجد ألقى رحله *** في آل طلحة ثم يتحوَّلِ

فهذا البيت يُعدُّ كناية عن كونهم أمجادًا.

وهناك نوع من الكناية يُعْتَمَدُ في فهمه على السياق، ونسميه تعريضًا، وهو إمالة الكلام إلى عُرْض أي ناحية، كقولك لشخص يضر الناس: "خير الناس أنفعهم للناس"[٢]

وتنقسم الكناية باعتبار المُكَنَّى عنه إلى ثلاثة أقسام:

أولًا– كناية يكون المُكَنَّى عنه فيها صفة، كقول الخنساء:

طويل النجاد، رفيع العماد * كثير الرماد إذا ما شَتَا

تريد أنه طويل القامة، وسيِّد، وكريم

ثانيًا– كناية يكون المُكَنَّى عنه فيها نسبة، نحو:" المجد بين ثوبيه، والكرم تحت ردائه " ، فنجد في الألفاظ نسبة المجد والكرم إليه.

ثالثًا– كناية يكون المُكَنَّى عنه فيها غير صفة ولا نسبة، وهو الموصوف كقوله:

الضَّارِبِيْنَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مُخْذمِ * والطَّاعِنِيْنَ مَجَامِعَ الأَضْغَان

فإنه قد كَنَىَ بمجامع الأضغان عن القلوب...[٣]

وهذه الأقسام الثلاثة هي من أقسام السكاكيّ، ولقد ذكرها عبد القاهر من دون أن يحددها تحديدًا دقيقًا...[١]

---

(١) يُنظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، إعادة طبع ٢٠٠٧، ص ص ٥٦٨-٥٧٣/ ومقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، ١٤٢٨-٢٠٠٧م، ص١١٢

(٢) ينظر: دروس البلاغة، حفني ناصف وإخوانه، ص ص٧٧،٧٨.

(٣) دروس البلاغة، حفني ناصف وإخوانه، ٧٥-٧٦، معجم المصطلحات البلاغية، ص ص٥٦٨-٥٧٣

ولكن حين النظر في قوله –سبحانه– :﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ٢٦٦﴾ [البقرة: ٢٦٦]

فكلمة الكِبَر هي صفة، ولكنها تعبر في مدلولها عن صفات وهي ضعف القوة الجسمانية والنفسانية والعقلية؛ فقوله– سبحانه– أصابه الكبر تعني دنو المنزلة الاجتماعية وفق قوله سبحانة:﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ٦٨﴾ [يس: ٦٨] ، وضعف القوة العقلية وفق قوله سبحانه﴿... وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ...٥﴾ [الحج: ٥]، والخطاطة[٢] الآتية توضح الوجهة

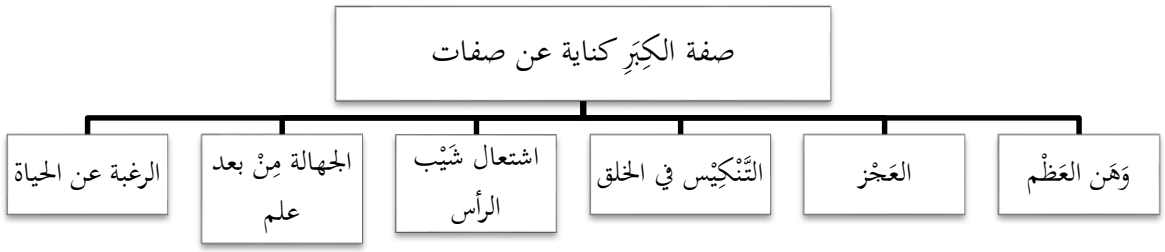

وفي المقابل نجد قوله –تعالى–:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا٤﴾ [مريم: ٤] ؛ فهي صفات تعبر عن صفة، وفق الخطاطة الآتية[٣]

(١) مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكيّ، المكتبة التوفيقية، من دون تاريخ طبع. ص١٩٣، دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، شركة القدس للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.ص٢٣٦

٢ هذه الخطاطة من عمل الباحث، بناء على استقراء السياقات القرآنية.

٣ هذه الخطاطة من عمل الباحث بناء على استقراء السياقات القرآنية.

وإجمالًا فهناك كناية عن صفة وعن موصوف وعن نسبة، فضلًا عن الكناية بصفة عن صفات، والكناية بصفات عن صفة؛ وعليه فتقسيم الكناية يكون وَفْقَ الخُطاطة الآتية[1]

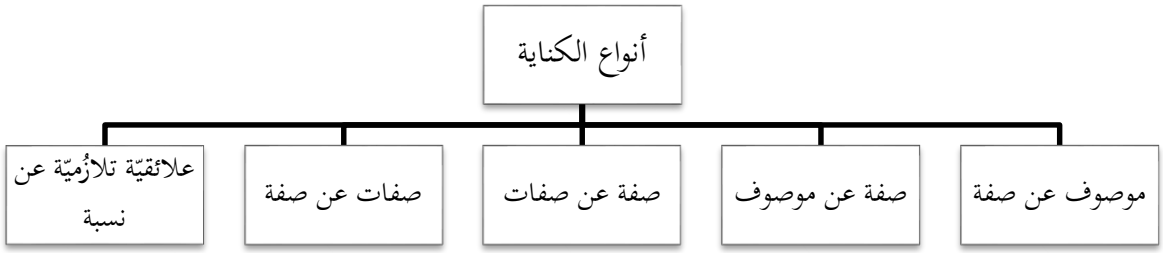

المبحث الثالث

تحليل الشبهة المتعلقة بقوله سبحانه " الرجال قوامون على النساء..."

في الشبهة الرابعة والثلاثين بعد المائة، من حقائق الإسلام الذي أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية– نجد ردًا وتحليلًا لهذه الشبهة ، ورد الشبهة تعلق بعدة من الأمور منها:

أولًا– جعل القوامة متعلقة بالمساواة.

ثانيًا– ربط بين آية (البقرة /٢٨٨) وبين (آية النساء/٣٤).

ثالثًا– استدل بالمشورة على التسوية، وذلك في الآيات (الشورى/٣٧–٣٩) و(البقرة/٢٣٣).

---

١ هذه الخطاطة من عمل الباحث بناء على الدلالات اللغوية والسياقات القرآنية.

رابعًا– استند بأحاديث تكون لنا في توجيهنا، ولا تكون علينا كالحديث الذي ذكرته السيدة عائشة – رضي الله عنها– : "إنما النساء شقائق الرجال" رواه أبو داود والترمذيّ والدراميّ والإمام أحمد؛ فالسيدة عائشة قالت الرجال والنساء، ولم تذكر الذكر والأنثى.

خامسًا– أشار إلى ما أشرنا إليه ضمنًا من دون ذكر مصطلح؛ إذ يقول: " فلقد ربط القرآن هذه الدرجة في الريادة والقيادة بالمؤهلات وبالعطاء، وليس بمجرد "جنس"؛ فجاء التعبير : "الرجال قوامون على النساء"، وليس كل رجل قوامًا على كل امرأة ...؛ لأن إمكانات القوامة معهودة في الجملة والغالب لدى الرجال، فإذا تخلفت هذه الإمكانات عند واحد من الرجال كان الباب مفتوحًا أمام الزوجة – إذا امتلكت من هذه المقومات أكثر مما لديه؛ لتدير دفة الاجتماع الأسريّ– على نحو ما هو حادث في بعض الحالات"[١].

والوقفة مع جملة " فإذا تخلفت هذه الإمكانات عند واحد من الرجال كان الباب مفتوحًا أمام الزوجة، إذا امتلكت من هذه المقومات أكثر مما لديه "، وهذا مانطلق عليه ذكرًا أو ذكرانًا، أو كان رجلا كاملا جارت عليه الأيام وتقلباته؛ فكانت المرأة عضدًا له لا قَوَّامَة عليه، وإلا فالشخص ليس بمرتبة الرجولة، وفي المقابل نطلق عليها امرأة ونساء لا نسوة أو نسوان.. والرجل هو الذكر صاحب الكمالات، والنساء اسم جمع لامرأة، وهي الأنثى صاحبة الكمالات....

- بين سوء الفَهْم للقوامة، وحسن الفَهْم:

إن الآية لا تتعلق بالمساواة بين الرجل والمرأة؛ إذ ليس هناك ما نسميه مساواة مطلقة في تلك الحياة؛ إذ إنها مبنيّة على التفضيل والدرجات ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ... ٢٥٣﴾ **[البقرة: ٢٥٣]**، وقوله– سبحانه–: ﴿ **...وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ...﴾ [الزخرف: ٣٢]**، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ...﴾ [الأحقاف: ١٩]، وكذلك في آية القوامة ﴿**... بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ...﴾ [النساء: ٣٤]**.

فالتفضيل في المعدن والإمكانات كتفضيل طالوت: ﴿**... قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ...﴾ [البقرة: ٢٤٧]**؛ ومن ثمَّ فالمساواة بين الرجل والمرأة في جميع الكفايات والأعمال أمرٌ لم يقم عليه دليل من تكوين الفطرة، ولا من تجارب الأمم، ولا من حكم البداهة والمشاهدة، بل قام الدليل على نقيضه في جميع هذه الاعتبارات.

والمفهوم الثاني للقوامة أنها تشمل كل ذكر منذ ولادته إلى يوم وفاته، وهذا من سوء الفَهْم... ﴿**... ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ...﴾ [النساء: ١١]**، فضلًا عن وجود أمثلة في التاريخ تؤكد سوء الفَهْم ذلك، منها: وصف ابن القيم الذي كان يذكر فيه واقع العصر بقوله : " إن السيد قاهر لمملوكه، حاكم عليه، مالك له، والزوج قاهر لزوجته، حاكم عليها، وهي تحت سلطانه وحكمه شبه الأسير "[٢]، فضلًا عن سوء تعبير بعض الفقهاء؛ لعقد النكاح بقوله: " عقد تمليك بضع الزوجة..." بدلًا من الميثاق الغليظ في الحقوق والواجبات ...[٣]

والمفهوم الصحيح عندي من البحث أن الرجولة ترتبط بصفات عند الذكر تكتمل فيه بعد فضل الله عليه بالبذل والعمل والترقي، وهي شدة البأس كالحديد، وكمال الشيم والأخلاق الحميدة، وذكاء العقل وحضور العلم، ونفاذ البصيرة وصدق العزم

---

(١) يُنظر: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، الشبهة الرابعة والثلاثين بعد المائة، د.محمد عمارة، ص٦٠٥

(٢)إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ج٢، طبعة بيروت،١٩٧٣،ص١٠٦.

(٣)ينظر سورة النساء /٢١ في قوله: " وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا...."

ودقة الفِراسة...، وهي كذلك عند النساء، فهي أنثي ذات مكانه ترتقي وتعلو ...؛ ولذلك نجد قوله– سبحانه– : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ (سورة النساء/٣٤)، وقوله: ﴿... وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ...﴾ [البقرة: ٢٢٨]

الشبهة في قوله تعالي: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا٣٤﴾ [النساء: ٣٤]

حينما يتحدث مترجمو القرآن أو المتشغلون بإثارة الشبهات فإنهم يتحدثون في هذه الآية عن أمرين مهمين:

أولهما– مسألة القوامة أي قوامة الرجل على المرأة. (الكناية)

ثانيهما– مسألة الضرب. (الحيلة) وخذ بيدك ضغثًا (في كتاب المستطرف)

وكلا الأمرين متعلق بالبلاغة، ومفهومها، وحسن الوعي للسياق ومقاصد التشريع، والقضية الأولى متعلقة بقوامة الرجل على المرأة، وهل هي حقيقة ثابته أم متغيرة؟، وما دلالة الرجل؟، وما دلالة المرأة؟، وما السياقات القرآنية الأخرى التي قد تَرُدُّ على هذه الآية؟ ...

وإن كانت الثلاثة جميعها هي التي ترد كُلَّ شيء وتُيَسِّرُ كل صعب، وتُقَرِّبُ كلَّ بعيد حول هذه الآية وحول الشبهة المتعلقة بها...

وحينما عدت إلى مجمع البيان الحديث[1] لتفسير مفردات ألفاظ القرآن وجدته قد غفل عن التصريح بأن الرجل صفة إلا في إشارة –عابرة– حول الجلادة، وهي أيضا محل نظر، إذ عرَّف الصفة بالصفة، والبحث يرى أنها صفة عن صفات.

- الفرق بين الذكر والذاكران والولد والرجل:

هناك فرق بين كلمة الذكر والذاكران والولد والرجل، كما أن هناك فرقًا بين الأنثى والمرأة؛ وذلك وفق السياقات القرآنية المختلفة. مع الأخذ بنظر الاعتبار أن بعض المعاجم لايفرق بين تلك الكلمات، فهي عنده من قبيل الترادف، ولكن بعضها الأخر يذكر الفروق عملًا بقاعدة؛ إذا تغير المبنى تغير المعنى، فضلًا عن حسن الاستئناس بالشاهد والمثال من الكلام العربيّ القرآنيّ والمنظوم و المنثور.

فالذكر مايحمل عضوًا ذكريًا، والذكران ماكان العضو صالحًا فسيولوجيًا وظيفيًا، بوصفه قادرًا على إقامة علاقة، قد تؤدي إلى الإنجاب، وذلك وفق قوله –سبحانه–: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٥٠﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

والذكران بهذا المعنى تحت مظلة الرجولة، ولكن في الشهوة؛ وذلك وفق قوله –سبحانه–: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ...﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]؛ فالرجال شهوة هم الذكران كما في الآية الأخرى:﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ١٦٥﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وهذا يقودنا إلى معني الرجولة، فالرجولة لفظ لايتعلق بالذكر أو الأنثى، بل يتعلق بتمام الكمال، وبديع الصفات، وعظم القوة في العلم والجسم والذكاء والحيلة والسبيل والأخلاق... ولا سيما الصفات الذاتية في الإنسان، كالعلم والجسم بوصفه بأسأ شديدا لا شحما زائدا، ومرضا خفيا، وهذا بخلاف الصفات العَرضية كالمال والسلطة.

---

١ يُنظر: مجمع البيان الحديث، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، سميح عاطف الرين، دار الكتاب اللبنانيّ، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص ص ٣٥٠– ٣٥١.

فهناك رجولة في الرأي كما أشار النبيّ ﷺ بقوله: عائشة رجلة الرأي، وهناك رجولة في العهد والوفاء: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ... ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، كما كانت الدعوة إلى الكمال ظاهرة في دعوة المسيح عليه السلام لأتباعه؛ فقد قال: "فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل"[١]، وهناك– أيضا– رجولة في التيقظ كما في قوله: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ...﴾ [النور: ٣٧]. ، ومن ثمّ فالكمال مع الشدة يعد من الرجولة كما أشار صاحب اللسان، والشدة ترتبط بالحديد]﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: ٢٥] كما وردت في وصف بعض عبادة﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾ [الإسراء: ٥]

وهناك من الأوصاف القرآنية التي اتصلت بالنساء مع كونها مذكورة في صورة المذكر، كما في قوله –سبحانه–: ﴿... إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف: ٢٩]؛ لأنها أشبهت عناد الجبارين، وكقوله –سبحانه–: ﴿... لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: ١٠]، وكقوله –سبحانه–: ﴿... وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: ١٢]، وحديث النبيّ الذي يشير إلى الكمال، لعله يشير إلى الرجولة كما في قول النبي محمد ﷺ: "كَمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: "مريم بنت عمرآن، وآسيا بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد"؛ ولذلك جاء النص القرآني مؤكدًا هذا المعنى في أهل الرسالات بقوله:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: ٤٣] وقوله–سبحانه– ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ [الأنبياء: ٧]

ومما سبق يظهر لنا أن للرجولة صفات محددة، نستطيع أن نستخلصها من سمات الأنبياء وصفاتهم، وهي على النحو الآتي:

من صفات الرجولة[٢] في الأنبياء[٣]

إبراهيم	يوسف	موسى	سليمان	محمد
حليم أواه منيب	أيها الصديق	القويّ	علمنا منطق الطير	من أنفسكم
أولي الأيدي والأبصار	إني حفيظ عليم	الأمين	أوتينا من كل شيء	غزيز عليه ما عنتم
كان أمة قانتا لله	إنا نراك من المحسنين	مخلصا	جنوده من الجن والإنس والطيرففهمناها سليمان	حريص عليكم

١ الكتاب المقدس، الطبعة الخامسة،٢٠٠٦، دار الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح الخامس، آية ٤٨.

٢ يُنظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ، دار الحديث، ٢٠١٢م، ج١، ص ص ٤٧٢– ٤٧٤م./ التفسير الكبير، فخر الدين الرازيّ، دار الحديث، ج٥، ص ص ٣٠٨–٣١٢.

٣ هذا الجدول من عمل الباحث، بناء على النظرة الاستقرائية في القرآن الكريم.

ولم يك من المشركين	إنه من عبادنا المخلصين	من الآمنين	لسليمان الريح	بالمؤمنين رءوف رحيم
شاكرا لأنعمه	خير المنزلين	ليس بظهير للمجرمين	نعم العبد– أواب	فبما رحمة من الله لنت لهم

والسؤال هنا: هل هذه الصفات السابقة تنطبق على كل الذكور؟ وهل هناك أنثى تبغي صفاتا فوق هذه الصفات التي تجمع بين الجمال والجلال، في متعتها وألمها؟

وعليه فإجمال القول في هذه الوجهة إن الرجل إشارة إلى الكمال الذكوريّ، وإن المرأة إشارة إلى الكمال الأنثويّ، فلكل منهما رأي وكلمة، ومنصب وجمال وجلال، وهيبة وشدة، وقد يعبر عن المرأة بكلمة الحرة كما في حديث هند بنت عتبة عند البيعة " وهل تزني الحرة"، كما أن الرجولة قد تكون وصفا للجنسين.

والمرأة تتحكم في الذكور والذكران، ولكنها تقف يقظة حذرة متأملة متعلمة راضية بالاستسلام، رضا القناعة لا رضا الجبر والإكراه والإرغام، حين تتعامل مع الرجل وَفق درجة رجولته، ولعل دليل ذلك في القرآن الكريم ما يلي:
سياق الهدهد حول مجال الإحاطة؛ إذ يقول: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ٢٣﴾ **[النمل: ٢٣]**
ففي الآية أشار إلى وجود امرأة –أنثى ذات مكانة وكمال/ ذات منصب وجمال– وذلك في القوة الذاتية –علمًا وجسمًا وبقوله تملكهم إشارة إلى القوة العَرَضية كالمال والسلطة– وأكَّد ذلك بضمير جمع المذكر " كلمة هم "؛ فهو لم يقل إني وجدتُ امرأة تملك الرجال، وإلا لتعارض ذلك مع صريح القرآن في قوله: "الرجال قوامون على النساء"؛ فالاختيار اللفظيّ اختيار دقيق يحمل من التتميم والتكميل والاحتراس ما يحمل...

وفي السياق نفسه تجد ضعف القوة الذاتية –العلم– عند هؤلاء الذكور أو الذكران أو الجنود؛ إذ نجد مشورة ضعيفة لا ترد مُصِيْبَةً ولا تحل إشكالًا وَفق قوله –سبحانه–: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ٣٣﴾ **[النمل: ٣٢-٣٣]** فأخذ المشورة من كمال آلة العقل؛ إذ أَمَرَ الله نبيه بذلك ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ١٥٩﴾ **[آل عمران: ١٥٩]** كما في وصف الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ٣٨﴾ **[الشورى: ٣٨]**، ولعلَّ إشارة القوة العلمية العقلية تظهر في قول النبيّ محمد – عليه الصلاة والسلام– عن السيدة عائشة –رضي الله عنها– " عائشة رجلة الرأي"

ولعلَّ تأكيد القوة الرجولية العلمية الذاتية يظهر في رد سليمان –هدية الملكة الاستخباراتية– وَفق قوله –سبحانه–: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۡۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ٣٦﴾ **[النمل: ٣٦]** فقوة المال

العَرَضية ليست مَحَلَّ تأثير في الرجال؛ إذ قوتهم تصدر أولًا عن علم متحكم وعقل يزن ويحسن الإدارة ثم بسطة في الجسم تسير وَفق انضباط، فضلا عن بأس في الخطوب.

ولعلَّ إظهار فارق العلم لها هو ما جعلها تخضع وتسلم وتذعن، وتعلم أنها أمام رجل من نوع خاص ومن مَعْدن نفيس، فهي أمام نبيّ من أنبياء الله؛ ولذلك نجد قوله-سبحانه-﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ٤٢ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ٤٤﴾ [النمل: ٤٢-٤٤]

ومن السياق السابق نجد جزءًا من كمال المرأة العقليّ في حسن الجواب؛ فهي لم تقل: نعم، ولم تقل: لا، بل قالت كأنه هو، فضلا عن أن سوء المعرفة وقلتها التي ظهرت في الكشف عن الساق ووجود القوارير كل ذلك أعلمها بكلا المقامين: مقامها ومقام نبي الله سليمان.

ومما سبق يظهر لنا ما يلي:

- المرأة أنثى ذات مكانة عقلية ذاتية تكمن في مشورة وحسن إدارة وجميل جواب؛ فهي ذات منصب وجمال، مع كونها حرة المنطلق والدافع وصادقة العزم والإصرار وإن وصل إلى عناد كفعل امرأة العزيز وفق قوله سبحانه﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ٣٢﴾ [يوسف: ٣٢].

- لفظة الذكر تختلف عن الذكران وكلا اللفظتين، يختلف عن الرجل، وشدة البأس حدها ليست دليلًا على عظم الرجولة؛ فالرجولة أقرب إلى الكمال، وإلا كان رجل تخصص؛ ومن ثمَّ نستطيع أن نطلق عليه رجل بأس كما أطلق القرآن رجل شهوة.

- ماينا سب المرأة، وما يجعلها راضية بالقوامة، لا خاضعة مستكينة- هو وجود رجل كامل العقل والبأس والخلق، نقي النفس، بديع التصرف، واثق الخطوة، ولعلَّ هذا ما جعلها تقول: "قالت رب إني ظلمتُ نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين"، فما التسليم إلا جزء وركن وأصل من القوامة ...

- الشبهة المُثَارة حول " الرجال قوامون على النساء" لاترتبط بشبهة بقدر ارتباطها بسوء فَهْم وضعف نظر في السورة خاصة وفي القرآن الكريم عامة؛ إذ أنزل الناس الذكر منزلة الرجل وأنزلوا الأنثى منزلة المرأة وفرق بين رجل وذكر، وبين رجل وذكران، كما أن هناك فرقا بين امرأة وأنثى.

- الرجولة صفة، ولعل هذه تدخل عندنا في مجال تطوير النظرية البلاغية تحت ما يسمى الكناية عن الصفات بالصفة .

نتائج البحث

- **البلاغة تنقسم إلى إبداع وتحليل، وذلك في النظم أو النثر أو القرآن، وفي التحليل نجد ما يتعلق بجمال النص أو الإدراك الأعمق لمراد المتكلم، ولعل في ذلك الإدراك ما يُزيل اللبس ويدفع الشبهة.**
- **كثير من المشكلات والشبهات والمطاعن لم يكن– في أصله– مطعنا عند العرب حين نزوله؛ ذلك لحسن فهم اللغة ودلالات اللفظة، سواء أمادية كانت أم نفسية أم مصطلحية، والقرآن دقيق في وصفه، ولفظه، ونسقه، وسياقه من سباق ولحاق.**
- **دعوة القرآن دعوة تدبرية تقودك إلى البحث فيما وراء الأشياء، لا النظرة القاصرة الظاهرة العابرة الجاهلة المجردة عن العلم والعقل والروحانية والتماس الحق، وحسن التفسير والتأويل، سواء أفي المحكم أم في المتشابه.**
- **إن شبهة "الرجال قوامون على النساء" تتعلق بالكناية عن الصفات بالصفة الواحدة من باب الاختصار والإيجاز؛ ومن ثمَّ فالرجولة تختلف عن الذكورة، وتوهم بعضهم بأن الذكورة هي الرجولة ظلم للمعنى؛ إذ الفرق واسع بين الذكر والرجل، كما أن الفرق واسع بين الأنثى والمرأة، وكما قال أحمد شوقي**

وكن رجلا إن أتوا بعده ...يقولون مرَّ وهذا الأثر

- **هذه الشبهة تُعدُّ شبهة بينية؛ فهي مزيج من النظرة في الكتب المقدسة والمعارف العامة والبلاغة والدلالة.**
- **التعبير عن الرجل بصفات الكمال من جمال وجلال، وما يبعثه ذلك من لذة وألم. وما دون ذلك ذكر وذكران يتناسب مع الوجهة الحضارية والعربية والعالمية فضلا عن روح الإسلام السامية، وفي الوقت نفسه فالتعبير عن المرأة يرتبط بالأنثى ذات المكانة والكمال، أو ذات المنصب والجمال التي لا يُجحد دورها ولا مكانتها المتميزة؛ فلسن جميعا كمريم ابنت عمران أو آسيا بنت مزاحم أو خديجة بنت خويلد أو فاطمة بنت محمد أو نسيبة بنت كعب أو هند بنت عتبة...أو ذوات المكانة في عصرنا الحاليّ، فكما أنه لا مساواة بين أعمى وبصير أو بين ظلمة ونور فكذلك لا تساوي بين أنثى وامرأة ولا بين ذكر وذكران، ولا بين ذكران ورجل، ولا بين رجال ونساء...**
- **الرجل يطمح إلى امرأة والعكس صحيح، وذا قالت ملكة سبأ وأسلمت مع سليمان، فالذكر يقود أنثى، والمرأة تقود ذكرا وذكرانا، والرجل يقود المرأة، وله القوامة عليها وفق درجة الترقي، والعلاقة ارتباطية موجبة في الإمكانات.**

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الكتاب المقدس، الطبعة الخامسة،٢٠٠٦، دار الكتاب المقدس
- الإتقان، جلال الدين السيوطيّ، دار الحديث، ٢٠٠٤م.
- إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات، محمد عمارة، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٣١-٢٠١٠م.
- إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار ابن كثير، الطبعة السابعة، ٢٠٠٢م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، طبعة بيروت،١٩٧٣..
- أغنية في غابة مشتعلة، محمد زكي العشماويّ، الطبعة الأولى، أغسطس ٢٠٠٠م.
- البلاغة القرآنية المختارة من الإتقان ومعترك الأقران للإمام السيوطيّ، السيد الجميليّ، دار المعرفة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ، راجعه وضبط أحاديثه، محمد إبراهيم الحفناويّ، ومحمود حامد عثمان، دار الحديث، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- دروس البلاغة، حفني ناصف، وسلطان محمد ومحمد دياب ومصطفى طموح، دار العقيدة، من دون سنة نشر.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ، شركة القدس للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.
- رد المتشابهات إلى المحكمات في جانب خاتم النبوات، محمد إبراهيم عبد الباعث الحسينيّ الكتانيّ، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.
- الرسالة المدنية في الحقيقة والمجاز، ابن تيمية، دار الخلفاء الراشدين، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- الشوقيات، أحمد شوقي، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.
- صفوة التفاسير، محمد عليّ االصابونيّ، دار البيان العربيّ، الطبعة التاسعة، من دون سنة طبع.
- علم التخاطب الإسلاميّ، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، محمد محمد يونس عليّ، دار المدار الإسلاميّ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- قواعد التصوف، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى زرُّوق الفاسيّ البُرنُسيّ، تقديم وتحقيق عبد المجيد خياليّ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢٦/٢٠٠٥هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشريّ، دار الحديث، ٢٠١٢٣م.
- كمال اللغة القرآنية بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم، محمد محمد داود، دار المنار، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة .

- مجمع البيان الحديث، سميح عاطف الرين، دار الكتاب اللبنانيّ، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، إعادة طبع، ٢٠٠٧م.
- المعجم الوجيز، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ٢٠٠٢.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الطبعة الخامسة، مكتبة الشروق الدولية.
- مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير، فخر الدين الرازيّ، دار الحديث، القاهرة، تحقيق سيد عمران، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكيّ، المكتبة التوفيقية، من دون تاريخ طبع.
- مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- منهج الإسلام في الرد العلميّ على الشبهات والافتراءات، محمد محمد داود، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- مورد الظمآن في علوم القرآن، صابر حسن محمد أبو سليمان، الدار السلفية، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازيّ، تحقيق سعد سليمان حمودة، دار المعرفة الجامعية،٢٠٠٧م.